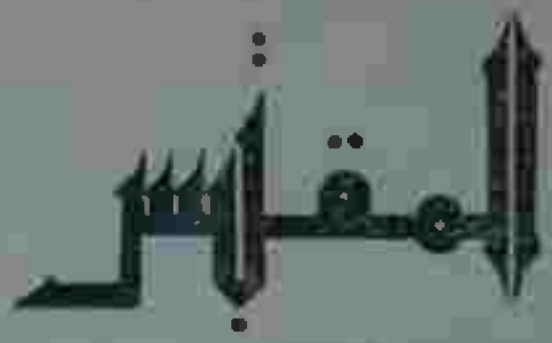

المقتبس

اوربا في سورية

حياة المرء سلسلة تختلف حلقاتها بين سوداء وبيضاء والحكيم قبل ان يسأم من بيض الليالي يتوقى سودها ليذخر قوة ومنعة ولا يقف اذ ذاك الحازم امام الشدائد قنطاً متذمراً بل متسلحاً ابداً ومتأهباً للمكافحة والنضال .

وناموس الافراد يشمل الامم والممالك كبيرها وصغيرها فما من دولة الا وكان لها من دهرها يومان يوم لها ويوم عليها . هذه صبرت فاعتبرت وفازت وتلك لم ترعو فتلاشت خلفها من هو اقوى منها سنة الله في خلقه

اعتبر ذلك بدولتنا العلية التي اجتاحت الممالك ودوخت الامصار فاستنامت واستأمنت ولم تتأهب لمقاومة عدرات الزمان فقامت في وجهها الامم التي كانت خاضعة لها وكانت صدمة بل صدمات بين الشرق والغرب آلت الى تقهقرها كنا قبل نعرف للتقهقر معنى وفقدنا القرم وبلغاريا والفلاخ وبسرابيا في عهد السلطان سليم الثالث واضطر محمود الثاني التسليم بمصر لمحمد علي . وكانت ايام عبد العزيز فضعفت الدولة بتداخل الاوربيين وشق البلغار عصا الطاعة وفازوا باستقلالهم . وكان ما كان في ايام عبد الحميد من احتلال الدول لهذه الجزيرة وتلك الولاية واستقلال هذه الامارة وانسلاخ تلك حتى لم يبق من مملكة سليمان الكبير سوى شبح حاول الاحرار ان يجسموه فانتشلوا الدستور من اعين طاغية آخر القرن التاسع عشر وعمدوا الى الاحتفاظ به متخذين من الاتحاد الثلاثي سنداً وعوناً ففاجأتهم احدى الصديقات بابتلاع البوسنة والهرسك فصاحوا وزمجروا ولكن لم يعتبروا فدهمتهم الصديقة الثانية باحتلال طرابلس الغرب لاعتقادها ان الدولة العلية لم تجاوز مع اتساعها حد الجمجمة وهي قريبة منها فما عساها

تعمل الآن مع ايطاليا وهي بعيدة عنها . كل ذلك وساسة البلاد لا يفكرون في الزوال ينتظرون حدوث عجيبة لاعتقادهم ان من السهل على من يبيع سلاح القتال [illegible] ان يتقي حسامه ويضرب به اعداء الاسلام الضربة القاضية .

وكأني بهم امام الضربة الاخيرة والقوم مستأنسين لا يجدون الا في حساب متوهمين ان أزمة طرابلس الغرب هي آخر حلقة من سلسلة حياة الدولة يعطون هذه العقدة ثم يستأمنون للدهر متعامين عن فلتات ساسة اوربا الثالثة بدوس هذه الاطلال تاركين البلاد عرضة للمحن باختلال احوالها وجهل اهلها وفقد الامن منها .

ففي صفحات التاريخ لا تجد بلاداً تناوحتها صروف الدهر وتناوبتها خطوب الزمان وكانت ميدان احتكاك المصالح فيها مثل بلاد الشرق . ونضرب صفحاً عن العقد الكثيرة التي لم تحل فيها بعد كالبانيا ومكدونية والعربية ولنأخذ منها ما هو اقرب الينا اي سورية وفلسطين فنرى من مصالح الدول ما لا يوجد في غيرها من الولايات ويسوغ لنا ذلك القول :

كان نفوذ الدول الاوربية في سورية قليلاً جداً في اواسط القرن الماضي . وأبرمت معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ فانفتح باب واسع لذلك النفوذ وكانت الجمعيات الدينية في ذلك العهد تنقل الى الشرق مدنية الغربيين فوجدت ارضاً ملائمة وعمرت سورية وفلسطين بعناية المبشرين ورجال التبشير الديني . وكانت فرنسا السابقة في هذا المضمار فعمرت بلادنا بالمعاهد الخيرية والتهذيبية بهمة جمعية اخوة المدارس المسيحية وجمعية « راهبات المحبة » ولا عجب فقد وثقت علائقها مع الشرق منذ القرن السادس عشر بحمايتها فيه كاثوليك اوربا جميعاً . وكان مشروعها يرمي الى ربح سورية ولم تبال بما قام في سبيلها من المصاعب والعقبات . ولم تغفل عن تأييد مصالحها في الشرق بكل الوسائل الممكنة على اختلاف الاحوال حتى في ايام حكومة الكونفانسيون والديركتوار والاضطرابات الداخلية قائمة على قدم وساق ولم يحد نابوليون عن سياسة فرنسا التقليدية في الشرق فشرع بعد ابرام صلحه مع الدولة العلية سنة ١٨٠٢ الى تجديد الامتيازات والمحالفات القديمة وامر سفيره في الاستانة ان يبسط حمايته على كل كاثوليك سورية وفلسطين ولا سيما قوافل الزوار القاصدين الى الارض المقدسة .

ولما كان يقتضي لهذا الامر مبالغ وافرة من المال اخذت الحكومة الفرنسية تمد محافلها بالمال المطلوب . ولا تزال تبذل كل مرتخص في سبيل ذلك قبل الامبراطورية الثانية

إلى أن الحكومة أدخلت في ميزانية وزارة خارجيتها كمية تنفق سنوياً في الأعمال الخيرية والتهذيبية تبلغ زهاء [illegible] فرنك فأصبحت سنة ١٨٨٠ خمسمائة ألف وسنة ١٨٩٢ سبعمائة ألف وسنة ١٩٠٠ [illegible] ألف .

على أن الحكومة لا تنفرد وحدها في انشاء المدارس وتنظيمها فهناك جمعيات أخرى قامت بالعناية نفسها . ففي سنة ١٨٥٥ أسست جمعية أعمال مدارس الشرق L'œuvre des écoles d'Orient [illegible] تجمع مبلغ [illegible] وتوزعها في المعاهد الخيرية ومدارس الرهبانات في الشرق [illegible] ٠٠٠ فرنك . ثم أخذ [illegible] في فرنسا [illegible] الأسس الرابطة الاتحاد الاسرائيلي L'alliance Française التي [illegible] المدارس السورية في اختلاف مذاهبها [illegible] .

ولم يكن عمل الحكومة [illegible] الحكومة في فرنسا دون تأثير في حال المدارس السورية لأن الأحرار و[illegible] في أمر الاحتفاظ بمعاهد فرنسا الخيرية والعلمية في الشرق [illegible] الأحرار كثيراً ما يلجؤون إلى الحكومة الافرنسية [illegible] في مجلس الأمة [illegible] عن عمومها في الشرق [illegible] .

وفي سنة ١٩١٠ [illegible] ميزانية هذه المدارس [illegible] مجلس النواب [illegible] الإعانات ٢٢٠٠٠٠ فرنك ما عدا ما تناله مدارس الرهبانات الافرنسية التي لا تزال [illegible] مصالح الدولة [illegible] في أملاك الدولة العلية .

على أن [illegible] وإيطاليا [illegible] في الشرق [illegible] فدعاها ذلك الحكومة الافرنسية [illegible] أكثر مما كانت [illegible] مع توسيع ميزانية المدارس الشرقية [illegible] بحيث لا تكون عرضة [illegible] تحت [illegible] العرضية إلى حد [illegible] في ميزانية نظارة خارجيتها لسنة ١٩١١ تحت نمرة ٢٢ بموجب هذا البند [illegible] في المعاهد الافرنسية في سورية وفلسطين توزع على الطريقة الآتية .

٥٠٠٠٠٠ فرنك لمدارس الرهبانات منها ٣٠٠٠٠٠ لمدارس العليا و ٦٠٠٠٠ للمدارس الوسطى و ٣٦٠٠٠ للمدارس الابتدائية

و ٣٨٤٠٠٠ فرنك للمدارس [illegible] منها [illegible] للمدارس العليا و ١٣١٠٠٠

للمدارس الوسطى و ٩٥٠٠٠ للمدارس الابتدائية

و ٤٥٠٠٠ فرنك انفق على مدارس مختلفة و ١٢٢٠٠٠ على المعاهد الطبية

وتأخذ المعاهد المدنية علاوة على ذلك ١٧٠٠٠٠ فرنك مساعدة من جمعية البعثة اللادينية (العلمانية) التي أُسست سنة ١٩٠٢

مما ذكر يبدو للعيان ان فرنسا تسعى سعياً حثيثاً في تحسين مركزها في سورية ولا تبخل بالمال في سبيل ذلك، ونعتقد انها قد لا تكتفي بمليون فرنك لازدياد نفوذ المانيا وايطاليا اللتين تعدان بديعاً الى اقتلاع حماية الكاثوليك في الشرق الادنى من يدها، ولاشك انها لا تتوقف عن كل ما شأنه المحافظة على اسم الجمهورية وشرفها

اما انكلترا فانها رافقت فرنسا في عمل نقل المدنية الغربية الى سورية وفلسطين . وكان المبشرون من الانكليز ينتشرون في المدن الكبرى وفي ربوع لبنان حتى اقصاها وينشؤن المدارس والكنائس والمستشفيات للمرضى فعمت اللغة الانكليزية وراجت تجارة انكلترا وصناعتها وعظمت المنافسة بين النفوذ الانكليزي والفرنساوي . على انا لا ندري ما تنفقه الحكومة الانكليزية على مدارسها ومعاهدها الخيرية في سورية اما فلسطين فقد عرفنا من اوثق المصادر انه ينفق عليها اربعمائة الف فرنك ولانكلترا في سورية اضعاف ما لها في فلسطين من المعاهد الخيرية وغيرها .

ودخلت النمسا سورية بعد انكلترا وفرنسا لانشغالها عنها بالبلقان حيث كانت تسعى جهدها بتعزيز مركزها والبلقان مركز نفوذها دينياً وسياسياً . غير انها لما رأت ما احرزته انكلترا وفرنسا من النجاح الباهر في سورية ارتأت ان تفتح لتجارتها سوقاً جديدة وفازت بذلك بهمة جمعية الفرنسيسكان الدينية التي تنشر النفوذ النمساوي بهمة لا تبارى فتنشئ المدارس والمستشفيات للمرضى وبيوت العجزة وتجري الحفريات الاثرية وتبتاع الاماكن الثمينة بالنظر الى تاريخها المقدس

ولم نتمكن من الوقوف على كمية المبالغ التي تنفقها الحكومة النمساوية في سورية وفلسطين على مدارسها ومعاهدها الخيرية لابقائها ذلك في طي الكتمان فاننا نترك للقاري تقدير ذلك مع علمه ان النمسا تنفق على دار الزيارة وحدها في القدس ١٢٠٠٠ كرون وذلك بموجب ميزانية وزارة خارجيتها وأضف الى ذلك الاعانات العديدة التي يمدها بها الاهالي جمعية الفرنسيسكان وما يدفعه الامبراطور فرنسيس يوسف من ماله الخاص . وهذا ما لا يمكن لاحد معرفة حقيقته .

اما ايطاليا فانها بعد اتحادها سنة ١٨٦١ فقد وجهت انظارها الى الشرق أسوة بغيرها من الدول الاوربية . وكانت الحكومة اذ ذاك فقيرة فخصصت في ميزانيتها اعتماداً زهيداً لا يتجاوز اربعين الف فرنك اعانة لكل المدارس الايطالية في الشرق .

وفي سنة ١٨٧٠ انغمست فرنسا في حربها مع بروسيا فطلبت ايطاليا ان تأخذ على عاتقها حماية الكاثوليك فلم تقبل فرنسا ان تتنازل عن حقوقها . وبلغت المنافسة من هذا الوجه معظمها سنة ١٨٨٣ فكانت ايطاليا تلح بطلب حماية المبشرين الايطاليين وفرنسا تعارضها لاعتقاد الاثنين ان في هذه الحماية ما يجعل لها شأناً عظيماً في هذه البلاد .

ولما كانت ايطاليا تبغي ايصال نفوذها الى اقصى درجاته فتحت اعتماداً في ميزانيتها للمدارس الشرقية لسنة ١٨٨٣ — ١٨٨٤ قدره ثلاثون الف ليرة . وما كان هذا المبلغ ليحسب عظيماً لو لم تكن ماليتها اذ ذاك في حالة يرثى لها . لكنها لم يتسن لها مع ذلك حماية المبشرين الايطاليين فقررت انشاء عدد كبير من المدارس المدنية وخصصت لهذه الغاية سنة ١٨٨٧ اعانة سنوية قدرها مليون ونصف من الفرنكات . غير انها لم تفلح في هذا المسعى لما يقتضيه التعليم المدني من النفقات الباهظة ولعدم تمكنها من ايجاد معلمين لهم خبرة كافية للقيام بمثل هذا العمل . فعادت تحاول سلب حقوق فرنسا بحماية الكاثوليك وأسست لهذه الغاية في فلورنسا « جمعية حنفية لحماية المبشرين الطليان » فاضطرت فرنسا ان تتنازل عن بعض حقوقها واتفقت مع ايطاليا في سنة ١٩٠٥ على ان المعاهد الدينية مخيرة في حماية احدى الدولتين . فحدث اذ ذاك ان عدداً ليس بالقليل انحاز الى حماية ايطاليا وكان لهذا الفوز السياسي الباهر تأثير مهم في فرنسا اضطرب له الرأي العام ايما اضطراب .

ولم تكن ايطاليا بعد فوزها على فرنسا لتكتفي بالمليون والنصف من الفرنكات لأجل مدارسها فجعلت كل سنة تخصص مبالغ اخرى لمدارس الحكومة ومدارس الرهبانات التي انشأها الاكليريكيون المطرودون من ايطاليا بأمر الحكومة . وفي الخامس من تموز سنة ١٩١٠ صادق مجلس النواب على زيادة ميزانية المدارس السورية اربعمائة الف فرنك فاصبحت نحو مليونين ادخل منها في ميزانية نظارة الخارجية ١٣٥٠٠٠٠ فرنك وفي ميزانية لجنة الاستعمار ٥٥٠٠٠٠ وتقرر توزيع المبلغ من قبل نظارة الخارجية بمعرفة نظارة المعارف .

ولما التفتت المانيا الى الشرق كانت الدول قد رسخت اقدامها في سورية وفلسطين . الا ان المانيا [illegible] رغماً عن بسط نفوذها وتمكنت منها بسرعة لا توصف شأنها في كل حالاتها من القوة الحية . وصمت تتطلع الى الامام بقدم ثابتة وارادة قوية مدعوة للقيام بعمل حيوي لان الحياة والتاريخ يدعوانها لتكون صلة واصل بين الشرق والغرب وصلة وصل بين الشرقيين . وما من يذكر [illegible] المانيا تقوم بهذا العمل احسن قيام قد ربحت نقل الى الشرق ما تنتجه من الغرب من المدنية بواسطة عمال ملكيين وعسكريين [illegible] واساتذة [illegible] ومهندسين الخ .

ولم يفتها ان حماية الكاثوليك في الشرق كانت [illegible] الاسباب الاولى التي [illegible] فرنسا فأعلنت نيتها الحصول على حقوق حماية الكاثوليك الالمانيين واول عمل قامت به [illegible] جمعية [illegible] وعهدت [illegible] الكاثوليكية الشرقية . وكانت بعد ذلك سياحة الامبراطور في بلاد الشرق فقال [illegible] خارجية المانيا في مجلس الامة [illegible] يعدلون عن فكرة حماية كل المسيحيين في الشرق [illegible] حماية الكاثوليك الالمان من حقوق الامبراطور دون منازع . ولم تعارض فرنسا في [illegible] عن حقوقها لالمانيا ...

وفي هذه السنين الاخيرة [illegible] المانيا [illegible] كثيراً من المدارس الابتدائية وعدة مدارس عالية ومدرسة [illegible] في القدس وغيرها من [illegible] ومستشفيات [illegible] الجمعيات الكاثوليكية والانجيلية الالمانية ومن المال [illegible] التي تستمد قوتها من الاتحاد [illegible] وحدث [illegible] الحكومة [illegible] الجمعيات [illegible] المذهب [illegible] الوطنية . وما عدا ذلك فقد [illegible] في ميزانيتها [illegible] ٥٠٠٠٠٠ [illegible] في سورية وفلسطين [illegible] وزارة الخارجية .

ولم تغفل روسيا عن مساعي الدول الاوربية في سورية وفلسطين [illegible] التبشيرية . وكان الشرق الارثوذكسي قد اعتاد من القدم ان يعتبر روسيا حامية له في ايام المحن . واعترفت لها الدول بذلك بواسطة معاهدات دولية كانت نتيجة حروب [illegible] . [illegible] الا [illegible] في مجاراة الدول الاوربية بتأييد مركزها في الشرق فأسست [illegible] روسية في القدس [illegible]

ان باشرت سنة ١٨٤٣ بفتح المدارس وانشاء المعاهد الخيرية وفي سنة ١٨٥٨ بعد انتهاء حرب القرم قامت في مدينة [illegible] لها

على ان هذه المدارس لم يكن في وسعها مباراة الجمعيات الاجنبية بالنظر لحرج المركز الذي لا يسمح لممثلي الحكومة ان يتوسعوا في العمل وادت الحاجة الى تأسيس جمعية خصوصية غير مقيدة بمركز رسمي تقتدي بالارساليات الاجنبية تطلق يدها في العمل بدون خوف وهكذا كان

في سنة ١٨٨٢ وضع الاساس للجمعية الفلسطينية الارثوذكسية التي أطلق عليها سنة ١٨٨٩ اسم الامبراطورية وغايتها جمع الاحسان من الشعب الروسي الذي يعتقد ان الامبراطور [illegible] الارثوذكسية [illegible] . وباشرت الجمعية بانشاء المدارس وصادفت صعوبات شتى لم تلقها الجمعيات الاوربية لان هذه كانت بدت من حيث لم ينظر اليها احد من الاكليروس اليوناني الذي يكره الروسيين مصدر ثروته وغناه على ان الجمعية كانت تصرف معظم اهتمامها الى الزوار الروسيين فسهلت لهم سبل الوصول الى الاراضي المقدسة وابتنت لهم الابنية في القدس الشريف وغيرها وانشأت عدة مستوصفات لهم وللتلاميذ مدارسنا كل ذلك والحكومة الروسية لم تنفق بارة واحدة بل كان الشعب الروسي المتدين مصدر هذه النفقات الوحيد

وفي سنة ١٨٩٢ اتسعت كل اعمال الجمعية وما تنجزه في العشر سنوات التي مضت على تأسيسها اثبتت انها نجحت وزادت الزوار كثيراً واوت بعض اولاد الارثوذكسيين وعضدتهم بالمساعدة المادية وحق لها ان تكتسب ثقة الحكومة الروسية ولما كان عدد الزوار يزداد من سنة الى سنة والمدارس لم تسد كل الحاجة والاحسانات لا تقوم بكل ما تطلبه الحاجات الضرورية من النفقات طلبت الجمعية من الحكومة اعانة قدرها ٦٠٠٠٠ روبل الى ٨٠٠٠٠ سنة وايد طلبها رئيسها الغرندوق سرجيوس ولما [illegible] الحكومة [illegible] هذا الدين كل ما تملكه الجمعية من عقار وغيره مما تبلغ قيمته مليوني روبل [illegible] [illegible] لتصفية المالية في تلك الحين . ولم يبق للجمعية الا ان [illegible] عملها مكتفية بالاحسانات من الشعب الروسي ولكنها عادت سنة ١٨٩٥ فطلبت من الحكومة ان تعرض اعانة لانفاقها على المدارس السورية التي انشأتها بطلب من البطريرك [illegible] يريدون [illegible] الحكومة عملاً [illegible] المذكورة ادخلته في ميزانية المجمع المقدس على ان تنفقه على السفارة الروحية في القدس .

ولما لم يكن في الامكان متابعة العمل حسبما تقتضيه الاحوال بدون مساعدة كبيرة طلبت من الحكومة ثمانين الف ليرة تقرضها دفعة واحدة لتحسين امورها وتستوفي من الاعتماد المذكور اعلاه في مدة عشرين سنة . فقبلت الحكومة بذلك ولكن الجمعية لم تحصل على مطلوبها الا بعد مضي عشر سنوات وبشرط ابقاء المبلغ اقساطاً سنوية .

والامر الغريب ان الحكومة لم تنقدها المبلغ من مال الخزينة بل من ريع املاك بسرايا التي تديرها الحكومة ووفت الجمعية وعدها . لكن الحرب اليابانية قللت من مداخيل الاحسان فلم تعد تستطيع وفاء دينها فأجلته الى سنتين ثم الى ثلاث واخيراً اضطرت الى عدم الاحتفاظ بكل المعاهد التهذيبية والخيرية التي انشأتها وصرحت للحكومة بانها تضطر والحالة هذه الى حصر اعمالها في دائرة ضيقة فتهدم ما بنته في سنين عديدة . فارسلت الحكومة مفتشين الى سورية وفلسطين فحصوا اعمال الجمعية وشهدوا بما تؤديه من المنافع الجمة للزوار الروسيين وللمدارس الارثوذكسية فتقرر ايجاد مبلغ يدخل بصورة قانونية في ميزانية نظارة الخارجية فتنفقه الجمعية على تحسين المدارس في سورية وفلسطين بحيث تفي باحتياجات الاهلين نظير المدارس الاوربية في هذه البلاد . ومن هنا نستنتج ان الجمعية الفلسطينية الروسية انشأت معاهدها في هذه البلاد دون ان تساعدها الحكومة بشيء بعكس ما رأيناه في امر المدارس الاوربية الاخرى . وانها لم تحصل على الوعد بالمساعدة المنتظمة القانونية الا بعد مضي ٢٩ سنة على تأسيسها

هذا شيء عن حالة اوربا في سورية بسطته للقارئ وله ان يستنتج ما عسى ان يكون مستقبل هذا الوطن المحبوب اذا لم تبادر الحكومة الى ازالة كل ما من شأنه حمل الدول الاوربية على التدخل في شؤوننا . وما هي الا ساعة ذلك ان شاء المولى الكريم وهو حسبنا ونعم الوكيل

وطني